الدلالة التفكيكية في الفضاء الرثائي لبيد بن ربيعة أنموذجاً

د. فاطمة ضمد شهد
جامعة ذي قار/ كلية التربية البدنية وعلوم الرياضة
Fatma.thumad@utq.edu.iq

الملخص:

اتخذت الدلالة التفكيكية بصورة عامة منحىً خاصاً في طبيعة الشعر وتكوينه، فهي تجسد جميع الصور التي يمكن أن يوظفها الشاعر لهدم بعض الأفكار وتجديد دواعي فضائية مناسبة لمرثيه، فكل سمة تتعلق بالمرثي ماهي إلا ماهيات يستذكرها الشاعر ويضفي عليها رؤيته الخاصة بطابعها الجمالي، فقصيدة الرثاء زاخرة بالقيم الأخلاقية المتجسدة بالإطار الفني والمتمثل بالحقائق الإنسانية التي يستقصيها الشاعر بشكل فعلي، واستدعاء الأفعال البطولية له وتحويل بعض السمات إلى قدرات تصويرية قد تصاحب الحدث الواقعي أو المتخيل، فكان التمثل الدلالي للبنية الزمنية منفرداً فرادة خاصة تشكلت في انتقالاته المختلفة ملائمة لحيثيات الشاعر ومرثيه، كما أن المهيمن البنائي للزمن أدركه الشاعر بواقعية انحصرت في إطار التفاعل الفكري لخلق بؤرة تناسب مركزية هذا البناء في دلالاتها، أما في تأسيسه لدلالة الفضاء المكاني فقد حاكى به تمثلات الواقع المحصور في نمط التضافر والمهيمن المادي لتكوين المكان فعلياً، فكان الاستقراء الفضائي منحصراً في السياق النصي لبنية الحدث ودلالاته التجسيدية وطبيعة ترجمته في نصوصه الرثائية بشكل خاص.

الكلمات المفتاحية: الدلالة التفكيكية، الزمن، المكان، الرثاء، لبيد بن ربيعة.

Deconstructive significance in the elegiac space of Labid bin Rabi’ah as a model

Abstract

Deconstructive semantics generally takes a special turn in the nature and composition of poetry. It embodies all the images that a poet can employ to demolish certain ideas and renew spatial motives appropriate for an elegy. Each characteristic related to the elegy is a divine essence that the poet recalls and adds to it his own vision with its aesthetic character. The elegy poem is replete with moral values embodied within the artistic framework, represented by the human truths that the poet explores in a practical way, summoning his heroic deeds and transforming some characteristics into pictorial capabilities that may accompany the real or imagined event. Thus, the semantic representation of the temporal dimension is unique, formed in its various transitions, appropriate to the circumstances of the poet and his eleg ،The structural dominant of time was perceived by the poet with a realism confined within the framework of intellectual interaction to create a focus that matches the centrality of this structure in its connotations. As for his establishment of the connotation of spatial space, he imitated the representations of reality confined within the pattern of interdependence and the material dominant to actually form the place. Thus, the spatial induction was confined to the textual context of the structure of the event and its embodied connotations and the nature of its translation in his elegiac texts in particular ...

Keywords: deconstructive semantics, time, place, elegy, Labid ibn Rabi’ah.

توطئة:

يُعد التفكيك من الأساليب المهمة في دراسة النص الأدبي بشكل كبير؛ لما يحويه من مزايا في إظهار كيفية استعمال اللغة ومدى توازنه في استقرار اللفظة المكونة ضمن إطار التطبيق الفعلي.

وتحسس جاك دريدا مؤسس التفكيكية الجوانب الخاصة بالتفكيك ونقدها، إذ يجد القارئ في النص المقروء ما يساعد على استنطاقه وجعله يتفكك بنفسه (دريدا، 1985: 58). فالتفكيك في رؤية دريدا هو حركة بنيانية وضد البنيانية في الآن نفسه (حوار مع جاك دريدا: 254).

ولهذا فهو محمول على طبيعة فهم القارئ وما يفرضه من معانٍ حتى يصل إلى عقلية القارئ بشكل متنوع وبقراءات متعددة، وهذا ما سوف نلحظه بشكل واضح في دراستنا للشاعر لبيد بن ربيعة في رثائه وتوغله بالبنية الفضائية.

الدلالة التفكيكية للفضاء الزمني:

عبر الشعراء على مرور العصور من خلال الزمن عن انفعالاتهم النفسية والفكرية، لذا فالزمن يتضمن دلالات مختلفة ينتقل فيها الشاعر من حال إلى آخر.

والزمان هو الشيء الأقل الذي يشتمل على جميع المدركات (المعري، 1950، ينظر: 481). وإن الإحساس المباشر بالزمن والحاضر على وجه التحديد يقوم عن طريق النغمات الموسيقية، وهذه النغمات الموجودة في الحاضر، إذ تترك فواصل زمنية، ومن ثَمَّ تشكل إحساساً مباشراً بالحاضر (الصديقي، 1995، ينظر: 33).

وأثرت الحياة العربية قبل الإسلام في النظرة للزمن لذا ظُنّ أن الزمان قوة قاهرة تهيمن على الحياة وتُهلك الناس، كما ورد في القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (الجاثية: 24)، والدهر يطلق على المقدار الأبدي وقيل هو الزمان قل أو كثر (رضا، 1960، ينظر مادة دهر).

ويُعد الشعور بالزمن نمطاً من النضوج الفكري والقدرة على التأمل ولم يكن بمقدور البدائي وعي الزمن وعياً يهيئ له أن يقوم فيه شيئاً ذا قيمة (الصائغ، 1982، ينظر: 14).

وعبر الشعراء عن اتجاهاتهم لتقلبات الزمن من حيث جزعهم في قصص الحياة وانقلاب لحظات السعادة (ميرهوف، 1972، ينظر: 35). وانفعال الشاعر في قصائده سببها زمن القصيدة الذي يتضمنه ما هو أكثر من الزمن وهو الشعور والعاطفة والمضمون (أودنيس، 1978، ينظر: 213).

والزمن في الأدب نفسي وفكري، فأما النفسي فهو ذاك الإحساس المرهف بثقل الأيام والسنين على الإنسان، وينبثق منه الاغتراب والوحدة والشعور بوحشة اللحظات، فيهرب الشاعر أما للماضي ليبكي أمسه الضائع أو يتشرف المستقبل بعد أن تنمحي من ذاكرته وطأة الحاضر عليه (عبد الحسين، 1985، ينظر: 68).

ولما كان الشعر الجاهلي يمثل تاريخ أمة فأنه بناء زمني دال على توظيفات معينة للزمن في النصوص الشعرية، ومن تعدد الموضوعات الشعرية في العصر الجاهلي يتشعب الزمن إلى دلالات عدة تتساوق مع الموضوع الشعري، وحاول النقاد تقييم الزمن بحسب بنية النص الشعري، فقالوا أن المقدمة تمثل الماضي والرحلة تحيل على حاضر الشاعر في حين

يدلنا موضوع النص على الحاضر والمستقبل، وبذلك يعني أن الشعر يحمل أبعاداً زمانية مختلفة، وقد فارقت قصيدة الرثاء تلك المعيارية البنائية، فلا شك أن بناءها الزمني سيكون مفارقاً لتلك المقولات النقدية وسيخضع زمنياً لعاطفة الشاعر وماهية المرثي.

ويشير الاستقراء التفكيكي لشعر لبيد بن ربيعة إلى أن البناء الزمني في النص الرثائي ينقسم بحسب طبيعة زمن المرثي إلى:

أ. الزمن قبل التبليغ تفكيكياً:

حاول الشاعر استذكار ماضي المرثي والتأسي عليه في جدلية زمنية ماضية، ومثل هذا الوقع الزمني حالة من حالات الشعور العاطفي، فيجد الشاعر لنفسه متنفساً لكل ما يمثل قبل الحدث من مشاعر الحب والرضا للممدوح أي قبل أن يكون مرثياً وذلك كي لا يقلل من شأنه وميزاته التي تفقد صداها مقابل أخيه.

ويبين لبيد خوفه الشديد من الزمن فهو لم يصرح بمفردة الزمن سوى ثلاث مرات في ديوانه، وهذا طبيعي فمخاوف الزمن كانت واضحة في عصره؛ لكونه مقترن بالكون والوجود والأحداث (الصائغ، 1982، ينظر: 243).

ولبيد الشاعر الفحل الذي عاش حياته بأوقات مختلفة المدى لا يجعل من أخيه مضاهياً في صفاته عليه، ولكن قد نلمس في نصوصه بعض الفخر الذاتي بقومه وربما يكون أربد من بينهم كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 15/ الطرب: الحزن والاضطراب):

طَافَتْ أُسَيْماءُ بالرِّحَالِ فَقَدْ ... هَيَّجَ مِنِّي خَيالُها طَرَبَا

إحْدَى بَني جَعْفَرٍ بأرْضِهِمِ ... لَمْ تُمْسِ مِنِّي نَوْباً وَلا قُرُبَا

لقد افتخر الشاعر بقومه وأربد من ضمن قومه الأقوياء، وقيلت هذه النصوص قبل البعثة النبوية أي قبل حادثة الصاعقة التي ضربت أخيه، فنلتمس من بنية النص الزمنية المهيمنة تفكيكياً في شعره قوله (النوب) أي المسافة التي يسير فيها الشخص لأيام، ولفظة (القرب) وهي المسافة ليوم وليلة، وكل دلالة زمنية تفكيكية قد عبرت عن تركيز الشاعر للبعد الزمني في حياة مرثيه وهي أداة اجترحها للتعويض عن المفقود، فالنص يحمل توترا بين الطرب والحزن وبين ثنائية الحضور والغياب، ويتجاوز الرثاء القبلي إلى رثاء إنساني يحمل مضموناً تجريدياً، إذ استدعى الشاعر شخصية (أسيماء) برؤية وجودية، كما يمكن تفكيكها على أنها رمز لشخصية حقيقية معنية وقد تدل على الزمن الماضي له حمولات دلالية منها الطيف أو الموت ذاته أو ذكرى امرأة راحلة، وقد تكون بؤرة عميقة للحنين معززاً ذلك بلفظة طافت التي توحي معنى الحركة والعبور مما يشير إلى التذكر، إذ جعل النص يخرج من دائرة رثاء لشخص إلى دائرة التأمل في الزمن والغناء، ويقدم الشاعر تجربة وجدانية عميقة يمكن وعيها في ضوء التفكيك بوصفها تذويبا للمعاني الثابتة والخوض في غمار التناقضات الوجدانية ويظهر ذلك بين (الهيجان والطرب) ويتشظى منها تساؤلات كيف يكون الحزن باعثاً للطرب، وهذا بدوره يعكس توتراً داخلياً في ذات الشاعر بين الفقد/ لذة التذكر وبين ثنائية الألم/ المتعة الجمالية في الحنين والدلالة التفكيكية في هذا النص تكمن في التوترات الكامنة فيه.

ويعود الشاعر إلى الزمن في نص رثائي آخر، إذ يقول: (ابن ربيعة، 1430هـ: 18، المناطح: المقاتل، الجنب: الانقياد).

قَـوْمي بَنُـو عـامِرٍ وَإنْ نَطَـقَ الـ ـــأعْداءُ فـيهِمْ مَناطِقـاً كَـذِبَا

بمِـثْلِهِمْ يُجْبَـهُ المُنـاطِحُ ذو العـِ ـــزّ وَيُعْطـي المُحـافِظُ الجَنَبَـا

لم يصرح الشاعر بمرثيه في نصه الشعري ولكن نستشف من خلال حديثه عن قومه (بنو عامر) أنه من ضمنهم وإلا ليس من المعقول أن يبعد أربد من قومه الأقوياء، فالتبليغ كان قبل الموت المحتم، ونجد الشاعر قد انطلق من الرؤية الجمعية والذات الجمعية مما يعيد تشكيل الذات الشاعرة بوصفها جزءاً من الجماعة القوية لا كيانا فرديا وفق بؤرة التماهي أي تماهي الذات مع الجماعة إلا أن هذا الاندماج مع القبيلة خلق توترا ضمنيا مع الذات الرثائية أسهم في نشوء تضاد بين الحزن الفردي والفخر الجمعي، ودلالة تفكيك النص الزمنية تنطلق بالتنبؤ للتبليغ قبل حدوث الفاجعة في ذات المرثي، وعمد الشاعر في قوله (إن نطق الأعداء فيهم مناطقها كذبا) إلى تحويل الخطاب من الرد المباشر على الأعداء إلى تفكيك خطابهم بالتشكيك في شرعية نطقهم ذاته من خلال مفردة(مناطقا) أي أقوالها التي قرنت بلفظة (كذبا) مما يظهر لنا إدراكا واعيا للغة أي أن الكلام ليس دائما حقيقة مطلقة ؛بل قد يكون سلطة زائفة، وعند الخوض في باطن النص نجد موقفا تفكيكا ضد الخطاب العدائي يلمح هشاشته، واستدعى الشاعر في بنية النصية ازدواجية القوة (الدفاع/الهجوم) في قوله (يجبه المناطح ذو العز ويعطي المحافظ الجنبا) مما يوشي بصورة ثنائية تمثل قوم لبيد وقدرتهم على الحرب لكنهم أيضا أهل حكمة، وهنا لا تشير فقط إلى المديح بل محاولة تفكيك صورة العنف القبلي العدائي الأحادي واستبدالها بأخرى مركبة تتضمن قبيلة قوية ولكن متزنة.

ويمكننا القول بوساطة الاتكاء على تلك الرؤية الزمنية في رثاء لبيد، أن دلالة الزمن قبل التبليغ في رثائه لأخيه (أربد) كانت تتجه إلى التبلور التفكيكي في تنبؤات غيبية لما سيكون عليه مرثيه، وكانت تدور في فلك الماضي من دون استقصاء للمستقبل واستشراف الحاضر.

ب. الإخبار الزمني تفكيكياً:

يحاول الشاعر في هذا الاتجاه أن يلائم بين زمن الغياب (الموت) وزمن المرثي في النص، محاولة منه استدراك المحايثة الزمنية وإحياء المرثي أطول زمن ممكن في جدلية متساوقة زمنياً مع زمن النص.

والزمن هذا الشبح الوهمي المخوف الذي يتربص ويقتفي كل أثر من آثارنا حيثما وضعنا الخُطى، وحينما استقرت النوى فهو مسيطر على كل التصورات والأنشطة والأفكار(مرتاض، 1998، ينظر: 171). ولهذا يعد مظهراً من مظاهر معاناة الإنسان الوجودية ونشاطاته منذ أن بدأ الإنسان يدرك وجوده في هذا العالم (هندي، 2003، ينظر: 19).

وما نطالعه في هذا الاتجاه هو الحيثية الزمنية المتفككة ساعة وقوع الحادثة والتضافر الزمني في النص، كما في قول لبيد(هندي، 2003، ينظر: 48):

لَعَمري لَئِنْ كانَ المُخَبِّرُ صادِقاً
لَقَدْ رُزِئَتْ في سالِفِ الدَّهرِ جعفَرُ
فتىً كانَ أمّا كُلَّ شيء سألْتَهُ
فيُعْطي وأمّا كُلَّ ذَنْبٍ فيَغْفِرُ

لقد كانت بلورة الأفعال الزمنية في النص الشعري (كان، ورزئت، ويعطي، ويغفر) توحي بالمقارنة بين الماضي الغابر والحاضر الأليم في مضي الزمن لدى الشاعر، استدعى الشاعر المفارقة الزمنية بين لحظة موت المرثي وبين ماضيه ومناقبه التي كان عليها، إذ يفتح لنا بابا مهما في الدلالة التفكيكية خاصة حين نحلل زمنية الخبر وعلاقتها بالحقيقة والحنين والتأسيس النفسي لفعل الرثاء.

إن ثيمة الأخبار في النص الشعري تشي بهيمنة زمنية تفكيكية يتضافر فيها فعل الموت وبناء النص، ومن ذلك أن (المخبر) قد أبلغ بوقوع الصاعقة في زمن وقوعها، وهذا يفتح مجال التفكيك لزعزعة مطلق الحقيقة هل مات جعفر ؟هل الموت يقين؟ أم أن الذكرى تبقيه، فكان الشاعر بوصفه متلقياً للخبر ومنشداً للنص يسهم في انصهار الزمن وتضافر دلالته في آنية واحدة يتوحد فيها الإخبار والقول وتفكيك الزمن الشعوري، فتوظيف سالف الدهر لا يعني فقط وقتا مضى بل يحيل إلى ماض شخصي ممتلئ بالحنين والذكريات، وهذا الاندماج ما بين الدهر الماضي ولحظة التلقي الآنية ينتج في بنية النص ساحة للصراع بين الذاكرة (الماضي الوجداني) والخبر (الواقع الموضوعي)، إذ يتكون منها تقاطع الأزمنة والخطابات التي ينتج منها المعنى ليس ثابتا، ونلمح في بناء النص تكوين فكرة لا تسلم بوقوع الموت بوصفه حدثا زمنيا فاصلا بل تكوين بؤرة للصراع الشعوري الداخلي وكما في قوله (طاهر وغنيم وشماته، 1988، ينظر: 3):

مـا إنْ تُعَـرّي المَنُـونُ مِـنْ أحَـدِ ... لا والِـــدٍ مُشـــفِقٍ وَلا وَلَـــدِ

أخشَـى علـى أرْبَـدَ الحُتُـوفَ وَلا ... أرْهَـبُ نَـوْءَ السِّـماكِ والأسَـدِ

فَجَّعَنـي الرَّعـدُ والصَّـواعِقُ بالـ ... ـفارِسِ يَـوْمَ الكَريهَـةِ النّجُـدِ

إن الاستسلام لنبأ المفاجأة وخبر الموت أصبح أكثر بياناً في النص لحياة المرثي والتي يمتد زمنها بقوله (أخشى وأرهب) فكل دلالة منها عبرت عن الزمن الماضوي في النص وحتمية الموت المدرك للمرثي، والدلالة الزمنية التفكيكية لثيمة الخبر (فجعني) التي تجعل نبأ الموت مؤكداً لذات المرثي.

وبوساطة الدلالات الفنية والزمنية في النص لرثاء لبيد يمكننا بيان التضافر للتبليغ والنص، إذ نلمح هيمنة (الأخبار) متضافراً مع بناء النص

الرثائي زمنياً في شعر لبيد، وبتفكيك المهيمنين لغوياً يحيلنا الأخبار على أن (الخَبَرُ: المزادة العظيمة، والجمع أخبار وخبور، وأخبرته بكذا وخبرته بمعنى الاستخبار أي السؤال عن الخبر والمخبر: خلاف المنظر) (طاهر وغنيم وشماته، 1988، ينظر:5) وهذه الدلالة اللغوية توضح ماهية العلاقة الزمنية للمرثي.

أما المحور التفكيكي الذي يبين الدلالة الزمنية، بكل ما تحمله ألفاظ النص من إشارات توضح لنا أن زمن لبيد ابتدأ من لحظة الموت المفاجئ أو بالأحرى لحظة الأخبار عن الموت، فكان المشهد المأساوي طاغياً على النص من حيث دلالة هيمنة الأفعال (رزئت، وفجعني)، إذ اتخذ من الدلالة الزمنية (الفجع) بؤرة نصية تستدعي ذهن المتلقي وتدعوه إلى التسليم بحادثة موت المرثي وزمن غيابه بالإخبار والنعي، وإن الأخبار الزمني في هذا النص يتمثل بكونه العنصر المركزي الذي يعكس توترات الحاضر والماضي وبين حقيقة الخبر المشفوع بالذكريات والحنين من خلال عملية تفكيكة تعيد قراءة الزمن وتلاعب لبيد بالألفاظ والصور، إذ يتداخل فيه معاني الحياة والموت والخوف والمجهول، ويستعمل صورا تقوض الثوابت التقليدية مثل الأمان الأسري (الوالد والولد) ليظهر أن الموت لا يترك مجالا للعواطف الحميمة والدفء الأسري، وازدواجية الصور تظهر لنا بتلاعب النص بين ما يبدو من هدوء مألوف وسكينة (العلاقات الإنسانية الدافئة) وبين صور الطبيعة الهائجة وغير المتزنة التي بدورها تعكس توتر الوجود بين الحياة والموت وبين الذات والقوى الخارجة عنها ويوحي النص مدى عمق تأمل الذات الشاعرة في تقلبات الحياة ويضع بين المتلقي صورة مفككة لا تعرف الثبات.

ج. التبليغ بالزمن تفكيكياً:

ينتقل الإنسان في هذه المرحلة إلى إدراك الذات في نفسه فيدرك مدى التغير الذي طاله بجميع الأبعاد الخارجية، ومن ثم الشعور بالانقطاع بين ماضيه وحاضره، فيلجأ الشاعر إلى طرق أبواب الماضي (طاهر وغنيم وشماته، 1988، ينظر:59).

ونريد من وراء هذا المصطلح الزمن الذي يمثل حاضنة للمرثي ووعاء يجري فيه استذكاره، وكجدلية دلالية يكون فيها المرثي هو الزمن أو الدلالة الزمنية الدالة في النص.

ولعل الأمر الذي نلحظه عند الشاعر العربي في عصر ما قبل الإسلام ومواجهته للزمن من خلال استرجاع الماضي، فيخاطب من يريد عن طريق وظيفة التذكر مما يجعله فريضة مهيمنة بطريقة ذهنية لا يستطيع أن يفرط بها أي إنسان (مونسي، 2001، ينظر: 18).

والشعر أكثر الفنون الأدبية استحضاراً للزمن، ولا يكون إلا به، فهو تعبير عن لحظات من الزمان النفسي أو إيحاء شعوري للتجارب الذاتية (مرتاض، 1998، ينظر: 121).

وأمام هذا المنجز الزمني يبدأ الزمن الآخر وهو زمن عجز الحاضر في النفس الإنسانية والبدء بقلب الموازين وإبعاد كل حركة تتعلق بالحاضر وردها إلى الماضي (ابن ربيعة، 1430هـ: 47).

وقد استوعب لبيد الحدث فراح يتذكر ما في الماضي من أمور مؤثرة في نفسه تعود على مرثيه، فالزمن في نصه الرثائي أصبح بناءً يحمل طابعاً تفكيكياً يبلغ فيه المرثي الذي فارقه في زمنٍ سابق ويتجه بالبلاغ والأخبار إلى ذاته، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 34):

وأرَى أرْبَـــدَ قَـــدْ فـــارَقَني وَمِـــنَ الأرْزاءِ رُزْءٌ ذو جَلَـــلْ

مُمْقِـــرٌ مُـــرٌّ علـــى أعْدائِـــهِ وعلـــى الأدْنَـــينَ حُلْـــوٌ كالعَسَـــلْ

لقد تحول الزمن لدى الشاعر من الحاضر إلى الاستذكار الماضوي تفكيكياً، فكأنما منح النص بعداً زمنياً يعيد فيه المرثي إلى حياته الأولى، إذ يبدأ الشاعر بطرح موقفه في زمن

الحاضر/ الآني واستعمل لفظة (أرى) للدلالة على المراقبة الفعلية الآنية إلا أنه يستعمل صيغة تدل على زمن مضى وذلك يظهر بالفعل (قد فارقني)، إذ يحمل في طياته حدثا وقع في زمن الماضي مما ينتج عنه التداخل الزمني، وهذا الاندماج يفكك الفكرة التقليدية للفقد، وعمد الشاعر إلى تصويره حالة مستمرة في الذاكرة وآلية تحريك صور الشخصيات عبر الزمن (ومن الأرزاء ذو جلل - مر على أعدائه)، فالصورة الأولى تنقل صورة شخصية إلى مشهد زمني مختلف أما الصورة الثانية مر على أعدائه تحمل دلالة على مرور الزمن وتأثيره في تقويض مكانة الخصوم ويخلق لنا صورة جديدة متقلصة (ممقرة) بعد أن اجتاز مرحلة المواجهة مع الأعداء والعملية الزمنية تظهر لنا أن الزمن لا يحتفظ بالمعاني الثابتة، وتتشكل الشخصيات وأدوارها مما يؤكد لنا أن الثبات في الهوية أو القوة هو مجرد لحظة في مسار زمني متغير، ويعد التبليغ الزمني في هذا المقطع نموذجا لتفكيك الزمن بتداخل الماضي مع الحاضر عبر صياغة لغوية تجمع بين الحدث وأثره الدائم في الواقع الآني، ويضع الشاعر الزمن في حيز الديناميكية المتغيرة فلا تعد الأخبار أو الوقائع نقاط زمنية ثابتة بل تجارب حياتية تجدد مع كل لحظة مما يجعلها أيقونة تفتح المجال لإعادة تأويل معاني القوة والفقد والفراق والدوام ضمن سياق إنساني متقلب.

ويحاول الشاعر أن يستثمر الماضي في استدعاء مرثيه، إذ يقول (الجوهري، 1377هـ، ينظر مادة خبر: 343):

فَـــــلا جَـــــزِعٌ إنْ فَـــــرَّقَ الـــــدَّهْرُ بَيْنَنـــــا

وكُـــلُّ فَتـــىً يَوْمَـــاً بـــهِ الـــدَّهْرُ فـــاجِعُ

فَـــــلا أنَـــــا يـــــأتيني طَريـــــفٌ بِفَرْحَـــــةٍ

وَلا أنـــا مِمّـــا أحـــدَثَ الـــدَّهرُ جـــازِعُ

جعل الشاعر الدهر سبباً في كل شيء، والبنية الزمنية التفكيكية المهيمنة في النص الشعري هي (الدهر) فيحاول الشاعر الوصول في النص إلى غاية تُلبي كل رغباته ومن غير الاستسلام لوقع الدهر الذي وقف عائقاً بينه وبين المرثي.

وللوجود معانٍ عديدة ترمز إلى الحياة، وهي العثور على المفقود والخلق والمحبة وكل المعاني التي تنتج عن الحركة، إذ لا وجود من دون حركة حق الزمان نفسه، فالجاهلي لا ينظر إليها نظرة فلسفية وإنما غالباً ما يكون قريباً في المعنى الكينوني لمرثيه (ميرهوف، 1972، ينظر: 33)، وهنا يظهر لنا الزمن ليس محايدا، يحمل في طياته تقلبات وتجعل من كل لحظة تجربة مغايرة والشاعر يتخذ موقفا تجاه الآخر وعدم الانفعال سواء جاءت الأخبار بالفرح أو الحزن ويحيل ذلك إلى القدرة والقوة في مواجهة الزمن بروح مستقرة متزنة بعيدة عن التقلبات يتجلى التبليغ الزمني في هذا وتفكيك الوحدة الزمنية، إذ يبرز الزمن مصدرا للقوة منفصلة عن الثبات، وتعدد وجهات نظر الزمن ويعكس الطبيعة المتقلبة للدهر، واتخاذ موقف متوازن، إذ صرح الشاعر رفضه للانجرار وراء أفراح أو أحزان الزمن متخطيا تأثير الأحداث المؤقتة وهي عملية مستمرة تعيد تشكيل المشاعر والعلاقات

ويضفي حركة ديناميكية تتحدى الفهم العادي/ التقليدي للخير والذكرى، كما في قوله:

ألاَ ذَهَــبَ المُحــافِظُ والمُحــامِي وَمَــانعُ ضَــيْمِنَا يَــوْمَ الخِصَــامِ

وَأيْقَنْــتُ التَّفَــرُّقَ يَــوْمَ قَــالوا تُقُسِّــمَ مَــالُ أرْبَــدَ بالسِّــهامِ

أراد الشاعر تخليد المرثي من حيث الموازنة بين رغبة الموت وفاعليته، فتمحور في فضاء شعري وبدلالة زمنية تشحذها مظاهر الحياة فتنطلق منها خيوط النص وتقف على أعتاب الماضي، وهنا كأنه قام بتفكيك ماهية الموت وتحويله إلى حياة مستمرة في مخيلته والتحول الزمني في بنية النص يوحي الشاعر إلى من يمثل سلطة الحفظ والدفاع وتفكيك الثبات عبر أيقونة ذات فكرة استمرارية الحماية والدعم، إذ إن الزمن (الدهر) يقلب موازين القوى والعلاقات مما يؤدي إلى زوال تلك الضمانات في الوقت العصيب ودلالة التفكيكة للأخبار الزمني وإعادة ترتيب المعاني ينقلنا الأخبار ليست مجرد وقائع ثابتة بل هي عملية مستمرة تفكك المعاني وتعيد تركيبها في سياق جديد، إذ يصبح الزمن قوة قادرة على إبدال الحقائق الاجتماعية.

ويبقى لبيد مستقصياً الماضي ومستدعياً شخصية مرثيه تفكيكياً، كما في قوله (ناصف، ينظر: 55):

أبْكــــي أبــــا الحَــــزَّازِ يَــــوْمَ مَقَامَــــةٍ

لمُنَــــاخِ أضــــيافٍ ومــــأوى مُقْتِــــرِ

حدد الشاعر المهيمن الزمني في النص الرثائي (اليوم) الذي تقوم عليه الدلالة التفكيكية بإطار أوسع فيغدو أكثر من الزمن المحدد بمعناه الحقيقي، من حيث التحام الماضي بالحاضر، فأصبح (اليوم) نتاجاً لمراحل مختلفة إذ حاول الشاعر هدمها وبنائها بشكل يناسب واقعه.

إذ أراد لبيد استيعاب أكثر الدلالات الزمنية في نصوصه الرثائية، ليظهر فيها البعد الزمني المتلاقح بين الماضي والحاضر، إذ يقول (لفتة، 2008، ينظر: 81):

ذَهَـــبَ الّـــذينَ يُعـــاشُ فـــي أكنـــافِهِمْ

وبَقيـتُ فـي خَلـفٍ كجِلـدِ الأجـرَبِ

يقترب لبيد من مخاوفه إزاء البعد الزمني، فيستوحي تأثره النفسي (السايكولوجي) لتلاحم الماضي والحاضر في الوقت ذاته، لتكوين العبق الافتراضي المنتشر داخله برؤية تفكيكية لتعميق الرؤية الفكرية للذات تجاه الفضاء الشعري واستحضار العامل النفسي من تجربة رحيل الاحبة لإبراز الحقيقة الوجودية للحياة وما يتركه فراق الاحبة وفق أيقونة الرحيل المستمرة.

ومن الحيثيات الزمنية التي تجعل شعر لبيد مستفيضاً بها ومنها (النجوم) كدلالة وقتية مترابطة للبعد الزمني، كما في قوله (ابن سلام، 1974، ينظر: 32):

بَلِينـــا ومَـــا تَبلَـــى النّجـــومُ الطَّوالِـــعُ

وتَبْقَـــى الجِبـــالُ بَعْـــدَنَا والمَصـــانِعُ

أما الحيثية الزمنية الأخرى (الشتاء) استعملها الشاعر بوصفها دلالة زمنية تفكيكية تخاطب الماضي وتستنطق الحاضر، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 69):

وَالحَـــيّ إذْ بَكَـــرَ الشّـــتاءُ عَلَـــيْهِمُ

وَعَـــدَتْ شـــآمِيَةٌ بيَـــوْمٍ مُقْمِـــرِ

ومن خلال الاستدراك الزمني في الماضي والحاضر، نجد أن الأفعال الزمنية الماضية تبلورت في شعر لبيد بشكل يدلف إلى عائمية الأفعال الزمنية المستقبلية، لتكون زمناً دائرياً منزاحاً في رثاء مرثيه لخلق حالة من الاستقرار لدى الذات وتمكينها الفعلي تجاه الحدث مما يضفي حركة فعلية للزمن تنمي بناء النص وتجعله بؤرة غنية بالدلالة الفكرية والرؤية الشعورية.

ويمكن الكشف عن بنية الزمن التفكيكية المهيمنة في شعر لبيد الرثائي، كما في الجدول الآتي:

الوحدة الزمنية	نسبة المسافة الزمنية
الدهر	%15
الزمن	-
اليوم	%15
الليل	%3
الساعة	-
النجوم	%1
المساء	-
الصباح	-
السنة	-

ويكشف الاستقراء الإحصائي لشعر لبيد طريقته في الاستذكار الزمني والدلف إلى ماضي شخصية المرثي، وإن الشاعر قد يكون وقع في بؤرة المحددات الزمنية، ، إذ تشي الدلالة الزمنية إلى الرؤية التفكيكية في المحددات ومنها (الدهر واليوم) وتفاوتاً في المحدد الزمني (الليل والنجوم) مما يعني أن تفكيك بنية التبليغ بالزمن في رثاء لبيد قد اختلفت اختلافاً في التكوين الواقعي للشاعر.

الدلالة التفكيكية للفضاء المكاني:

قبل البدء بمعرفة ماهية المكان ودلالته في الأدب التي فاضت الدراسات بهما وأخذت مداها الواسع فيه، كان لابد من التعرف على أهمية هذا المحور الذي يُعد من المحاور الأساسية التي تدور حولها نظرية الأدب؛ لأنه يلعب دوراً مهماً في تكوين هوية الكيان الجماعي (ابن ربيعة، 1430هـ: 57).

وللمكان في حياة الإنسان قيمته الكبرى وميزته التي تشده إلى الأرض، وأن المكان يلعب دوراً رئيساً في حياة الإنسان منذ أن كان في رحم أمه ممارس تكوينه البيولوجي، ثم يخرج ليرى مكان آخر وهو المهد وبعدها تتبلور الأبعاد المكانية للإنسان حتى يصل إلى مكانه الأخير وهو القبر الذي يُعد المحطة الأخيرة في حياته (الصائغ، 1982، ينظر: 144).

والمكان أكثر التصاقاً بحياة الإنسان منذ أن لجأ لإدراك تصوراته العوالم المادية وغير المادية وهو يجده مصدره الأساس في كل شيء (الصائغ، 1982، ينظر:48)؛ لأن خاصية المكان تُكتسب من طبيعة الحياة التي كان العرب عليها ولم تقم على نمطٍ واحد من المعاش.

وليس المكان ذلك المغطى الخارجي المحايد الذي نعبره من دون أن نأبه به، وإنما المكان حياة لا يحده الطول والعرض وإنما خاصية في الاشتمال ومخالطة واندماج من ناحية أخرى (ابن ربيعة، 1430هـ: 48).

وعندما نقف أمام المكان لا نعني به الحيز الجغرافي وحده وإنما يتعدى إلى الفضاء المتنوع الأشكال (ابن ربيعة، 1430هـ: 24، الخلف: البقية).

وكل موطن من مواطن الحياة هو مكان بحد ذاته، وكل أثر ترتسم عليه ذكريات الحياة هو موضع مقدس لصاحبه ؛لأن له خصوصية وتواصل مع من يشاركه سواء كان هذا الشيء مادي أم غير مادي.

إن عالم المكان متسع يتعامل معه الشاعر تعاملاً واسع النطاق، وذلك بالعودة إلى الألفاظ ذات السياقات المختلفة في الخطاب، ففيها يعبر عن أسباب ألم الشاعر وهربه إلى عالم الحلم الذي تتمناه الروح وتلوذ به (سيف، 2004، ينظر: 73).

وترتسم اللحظة المكانية في قراءة الشاعر التي تعتمد على جملة من العناصر المادية المشاهدة في لحظتها (مونسي، 2001، ينظر: 26).

وباستقصاء تشكيلات المكان في ذهن الشعراء بدوائر مادية تبدأ بالجسد وتنتهي بالعالم الكوني اللامتناهي (حسن، 2000، ينظر: 63).

ولا ينأى علينا ما نجده في شعر العصر الجاهلي الرثائي فضاء واسع تتنوع مضامينه وأبعاده في نظر الشاعر؛ لما له من خواص حسية انعكست داخل ذاته، إذ حاول توظيفها في شعره وبأساليب متعددة تعود على حياة المرثي ومنها:

1- الأمكنة الاجتماعية:

عندما نستقري مكان غرض الرثاء في شعر لبيد أسلوبياً، نميز التنوع المكاني في نصوصه، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 45):

ونِعْـــمَ مُنَـــاخُ الجـــارِ حَـــلَّ بِبَيْتِـــهِ

إذا مـــا الكَعَـــابُ أصْـــبَحَتْ لـــم تَسَـــتَّرِ

عَمَد الشاعر بطريقة تفكيكية إلى خوض الفضاء المغلق (البيت) كوسيلة ينقل فيها إحساسه الذاتي لماهية المكان ودلالته الخاصة في ذات المرثي،

فعلاقة المكان وتحولاته في مجال اختزال ما يعيشه الشاعر تحتم عليه تكوين صورة جديدة في ذاكرته.

ويتجه الشاعر إلى دلالة الفضاء المكاني في نصوصه الرثائية، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 56، البلاقع: القفار):

وَمـــــا النّـــــاسُ إلاَّ كالـــــدّيارِ وأهْلِهـــــا

بِهـــا يَـــوْمَ حَلُّوهـــا وغَـــدْواً بَلاقِـــعُ

يستدعي الشاعر لفظ (الديار) وما تحمله من آثار نفسية تعود على المرثي لفقدانه إياه، مما منح النص بعداً حيزياً يستوعب الحدث الشعوري في ذات الشاعر، فالعملية الادراكية للمكان الفعلي وجمال العيش فيه متجسدا في بنية النص بلفظة (حلوها) دلالة معنوية للأثر المادي الذي يتركه المكان في ذهنية المتلقي.

2- الأمكنة البطولية:

تعددت الأماكن التي تصاحب المرثي وفروسيته أمام أعدائه ورؤيته للفضاء الرحب الذي يطلق فيه عنانه، مصاحباً فيه مجده واعتزازه بالحيز المكاني، كما في قول لبيد(ابن ربيعة، 1430هـ: 48):

ويَهْـــــدي القَـــــوْمَ، مُضْـــــطَلِعاً، إذا مـــــا

رَئـــيسُ القَـــوْمِ بالمَوْمـــاةِ حَـــارَا

استحضر الشاعر (المومـاة) أي الصحراء الواسعة، بوصفها دلالة فضائية مناسبة لفاعلية المرثي، فجسد التفكيك الفضائي المكاني مع مراعاة ما يحاول إضفاءه على التحول الاستباقي لحياة المرثي، والدلالات للفضاء المكاني في شعر لبيد متنوعة، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 36، الضريك: الفقير، يقرو: يتتبع):

رِفْهـــــــاً إذا يـــــــأتي ضَـــــــريكٌ وَرَدَا
مِثْـــلُ الـــذي فـــي الغَيـــلِ يَقُـــرُو جُمُـــدَا
يَـــــزْدادُ قُرْبـــــاً مِـــــنْهُمُ أنْ يُوعَـــــدَا

دلف الشاعر إلى فضاء مكاني وهو (الجُمُد) أي الجبل، فأتاح له توظيف عائمية هذا الفضاء في كينونة المرثي، إذ استدعى الشاعر مضمون تفكيكي للفضاء المكاني من خلال الاقتراب الفعلي (يزداد قربا) لتمكين الذات من استيعاب اللحظة الشعورية تجاه المكان وتحويل المخزون الفكري تجاه الذكريات إلى لغة منطوقة.

ج- الأماكن الغيبية:

ينبعث الإحساس النفسي والشعور الذاتي في هذا النوع الفضائي لما يحمله من امتدادات عائمية تنعكس على ذات الشخص وتجعله يحيط بجوانب مختلفة.

إن فكرة المكان هنا تفرز تشخيصا فردياً للحالة النفسية التي يعيشها الشاعر من خلال المحاور الخيالية التي يصورها في داخله، فيطرح بدوره قوة إبداع بأشكال حسية خالصة (طاليس، 1953، ينظر: 155).

ويجب أن تقتضي التجربة الحاضرة التي يكون الشاعر بصددها علاقة بأخرى ماضية، مما يتيح الربط بين الخيال والذاكرة، ثم يضع الإدراك الحسي أو العيان شرطاً لهما (حسين، 1922، ينظر: 69).

ويتداخل الوعي بالأساطير والتراث بالبيئة، والخيال بالواقع، والإنسان بطبعه من خلال المعتقدات وكأنها كائن تاريخي تجلى وعيه في أنساق نامية من العقائد والتصورات والمواقف والقيم (حسين، 1922، ينظر: 5).

ويمكن الإحساس بالفضاء الغيبي في شعر لبيد الرثائي، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 45):

وبَيْـــــتُ طُفَيْـــــلٍ بالجُنَيْنَـــــةِ ثاوِيـــــاً

وبَيــتُ سُــهَيْلٍ قــد علِمــتِ بصَــوْءَرِ

اختار الشاعر الفضاء المكاني وهو (بيت طفيل) الذي قصد به القبر وكأنه روضة من رياض الجنة، مما خلق بعداً تفكيكياً فضائياً غيبياً يتناسب مع ذات المرثي.

والاعتقاد بوجود الأماكن المفترضة في أرض العرب، كجزء من المعتقدات السائدة للعصر، كأماكن الجن وغيرها، التي تنعكس على حياتهم الأدبية والفكرية والدينية (القريشي، 1963، ينظر: 49)، كما في قوله (ابن ربيعة، 1430هـ: 46، الحيدر: الذميم، الوضيع):

وَمَـــنْ فـــادَ مِـــن إخـــوانِهِمْ وبَنـــيهِمِ

كُهُـــولٌ وشُـــبّانٌ كَجِنَّـــةِ عَبقَـــرِ

مَضَـــوْا سَـــلَفاً قَصْـــدُ السّـــبيلِ عَلَـــيهِمِ

بَهـــيٌّ مِـــنَ السُّـــلاَّفِ لَـــيسَ بحَيْـــدَرِ

اتخذ الشاعر من الدلالة اللفظية (كَجِنَّةِ، عَبقَرِ) حيزاً غيبياً من حيث كونه الوادي الذي يتواجد فيه الجنَّ، محاولاً فيه الشاعر أن يربط العلاقة التفكيكية بين ثيمة المكان (الوادي) الذي يسكنوه الأسلاف قديماً مع ثيمة موت أخيه (أربد).

والإحصاء الفضائي لتداعي الأمكنة في شعر لبيد الرثائي يتحدد في الجدول الآتي:

الفضاء المكاني	نسبة تواتره في شعر
البيت	%15
الصحراء	%23

الجبال	%15
الوادي	-
الوغى	-
القبر	%10
أماكن الجن	%15

نلحظ مساحة البنية المكانية بطريقة تفكيكية تناسب مرثي الشاعر في محددات الفضاءات (البيت، الصحراء، الجبال، القبر) مما يعني أن المرثي وفعله وكينونته قد أسهمت في استدعاء أمكنة توافرت في ذهن الشاعر والمتلقي، إذ مارست الشخصية (المرثي) فيها فعلها الزمني، مما يحيل على استدار عاطفة المتلقي المحايث للشاعر والمتلقي المفارق للشاعر والمحايث للمرثي.

وأما اختراق الشاعر واستدعاء أمكنة تنمُ عن فعل المرثي الآخر، فأنها تدل على فرادة ذاتية عند الشاعر ورؤية فكرية تشكلت في أحلام يقظة ظلت شخصية الشاعر طامحة لبلوغها وتوجيه مرثيه في الدلف إليها، ومما لاشك أن الراثي يحاول أن يثير جزئية المكان في شخصية المرثي فيمنحها البعد المكاني الذي تتمايز فيه على أقرانها، ويهدف من وراء ذلك إلى السمو بمرثيه بمرتبة عالية في تكوين أفعالهم وكينوناتهم وأزمانهم.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- ابن ربيعة، ديوان لبيد بن ربيعة العامري. اعتنى به وشرحه: خمرو طماس. دار المعرفة. بيروت - لبنان. ط3. 1430هـ.

- ابن سلام، محمد الجمحي. طبقات فحول الشعراء. تحقيق: محمود محمد شاكر. دار المعارف. مصر. مطبعة المدني. 1974م.

- أودنيس. زمن الشعر. دار العودة. بيروت. ط2. 1978م.

- الجوهري (ت393هـ). الصحاح في اللغة. تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار. دار الكتاب العربي. مصر. 1377هـ.

- حسين، محمد الخضر التونسي. الخيال في الشعر العربي. المكتبة العربية في دمشق. مطبعة الرحمانية. 1922م.

- رضا، أحمد. معجم متن اللغة. دار ومكتبة الحياة. بيروت. 1960م.

- الصائغ، عبد الإله. الزمن عند شعراء العرب ما قبل الإسلام. دار الرشيد. بغداد. 1982م.

- الصديقي، د. عبد اللطيف. الزمان أبعاده وبنيته. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط1. 1995م.

- طاليس، أرسطو. فن الشعر. ترجمة: عبد الرحمن بدوي. مكتبة النهضة المصرية. 1953م.

- طاهر وغنيم وشماته، محمد. أحمد. حازم. جماليات المكان. الدار البيضاء. ط2. 1988م.

- عبد الحسين، محمد الدليمي. انتصار الزمن (دراسة أساليب معالجة الماضي في الفكر الأحيائي). دار آفاق عربية. بغداد. 1985م.

- القريشي، أبو زيد. جمهرة أشعار العرب. بيروت. 1963م.

- مرتاض، د. عبد الملك. في نظرية الرواية: سلسلة كتب ثقافية. عالم المعرفة - الكويت. 1998م.

- المعري، أبو العلاء. رسالة الغفران. تحقيق وشرح (بنت الشاطئ). دار المعارف. مصر. ط2. 1950.

- مونسي، د. حبيب. فلسفة المكان في الشعر العربي (قراءة موضوعاتية جمالية). دمشق. 2001م.

- ميرهوف، هانز. الزمن في الأدب. ترجمة: أسعد مرزوق. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر. القاهرة. 1972م.

- ناصف، د. مصطفى. قراءة ثانية في شعرنا القديم. دار الأندلس. د.م. د.ت.

- هندي. نزار يريك. في مهب الشعر (مقالات ودراسات). منشورات اتحاد الكتاب العرب. دمشق. 2003م.

الرسائل والاطاريح:

- حسن، خالد حسين. شعرية المكان في الرواية الحديثة (الخطاب الروائي أدوار نموذجاً). ليمامة. الرياض. 2000م.

- حوار مع جاك دريدا. مجلة الفكر العربي المعاصر.ع18. 1989.

- دريدا، جاك. الاستنطاق والتفكيك: مقال في مجلة الكرمل.ع 17. 1985.

- سيف، ابتسام علي نعمان. شعر المقالح (دراسة أسلوبية) (ديوان أبجدية الروح أنموذجاً). 2004م.

- لفتة، عواد كاظم الغزي. البنى السردية في شعر أوس بن حجر ورواته الجاهليين. أطروحة دكتوراه. الجامعة المستنصرية. 2008م.